

كلمة المؤلف

ما كنت أحسب يوم شرعت في تأليف كتابي «القضاء بين البدو» أنني سوف أخرج للناس هذا الكتاب في «تاريخ بئر السبع وقبائلها»؛ غير أنني ما كدت أنتهي من وضع ذلك الكتاب حتى شعرت بالرغبة تحدوني لدرس تاريخ القبائل التي اتخذتها مداراً لبحثي هناك؛ لتتم بذلك الفائدة المنشودة.

وما هذا الكتاب الذي أضعه اليوم بين يديك -أيها القارئ الكريم- سوى نتيجة تلك الرغبة وذاك البحث.

أنا لا أدعي العصمة، ولا أزعم أنني قد وفقت لإمطة اللثام عن تاريخ هذه البلاد وتاريخ القبائل النازلة فيها، ذلك التاريخ الذي لا يزال غامضاً، غير أنني لا أرتاب لحظة في أن ما تيسر لي جمعه من الأخبار والآثار كافٍ لأن ينير السبيل لمن شاء أن يخوض غمار هذا البحث.

ذكرت في تاريخ كل قبيلة شيئاً عن أصل تلك القبيلة، وما نقله إلي الرواة الثقات من أبنائها، ولكنك ستري أن هذه الروايات ضعيفة في بعض الحالات ومناقض بعضها بعضاً في الحالات الأخرى بدرجة يحار عندها العقل.

ولم أستطع -رغم البحث والسؤال- أن أجد في بطون الكتب ما يهديني إلى ضالتي.

تُرى من هم أعراب بئر السبع؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أية قبيلة من قبائل الجزيرة ينتمون؟ أو من أي بطن من بطون العرب الأوائل يتفرعون؟ وهل هم حقاً عرب أقحاح، نشثوا في صميم الجزيرة، وترعرعوا في أرجائها، ثم نزحوا مع من نزح منها أثناء الهجرات القديمة فكان نصيبهم هذه الديار؟ وإذا كان هذا هو الواقع فمتى

حدث ذلك؟ تُرى ألا يوجد بينهم من يرجع بالنسب إلى الأقوام الأولى ممن نزلوا هذه الديار خلال الأحقاب المنصرمة من كنعانيين، ومصريين، وعمالقة، وفلسطينيين، وإسرائيليين، وأشوريين، وفرس، ويونان، وأنباط، ورومان، و صليبيين، و عماليك، وأتراك وغير ذلك من الأمم، ثم اندمجوا بعرب الجزيرة فتمثلوا بهم وغدوا عربًا؟

قد يكون هذا، وقد يكون ذاك، وقد يكون كلا الأمرين معًا.

ترى كيف نستطيع أن نتهدي إلى معرفة الحقيقة التي لا مرية فيها؟ عندنا ثلاثة مراجع:

(أ) الكتب والأسفار

(ب) الطلول والآثار

(ج) الأحاديث والأخبار

بيد أننا قبل أن نرجع بك إلى هذه المناهل الثلاثة نرى لزامًا علينا أن نذكر أنه ليس من أصالة الرأي في شيء أن تأخذ كل ما جاء فيها على علاته، وأن تتلقنه كأه حقيقة مسلمة لا غبار عليها؛ إذ إن الشطر الأكبر منه لا يزال غامضًا يحتاج إلى تمحيص أدق وبحث أوفى.

فلا الأسفار الخطية - بما فيها من أنباء مقتضبة، ولا الأحاديث المروية بما فيها من تناقض تارة ومبالغة أخرى وجهل في أغلب الأحيان، حتى ولا الطلول والآثار التي نراها مبعثرة هنا وهناك والتي لا يزال يحيق بأكثرها سحب كثيف من الشبهات - نعم، لا هذه ولا تلك بشافية غلة الظمآن التائه في قيافي هذا البحث الخطير.

ولكننا مع تسليمنا بهذه الحقائق لا نرى مندوحة عن إدلاء دلونا في كل من هذه المناهل الثلاثة؛ عسى أن نعثر في جنباتها على ثُف تمكنتنا -أو تمكّن غيرنا من بعدنا- من تدوين سلسلة متصلة الحلقات لتاريخ هذه القبائل وتاريخ البلاد التي يعيشون فيها.

فالله تعالى نسأل أن يسدد خطواتنا، وأن يرشدنا إلى ما فيه نفع أمتنا، فهو نعم المولى، ونعم النصير.

عارف العارف